(الفصل الخامس فى العدالة والظلم والمحبة والبغض)

(الباب الاول ذكر العدالة وفضيلتها)

العدالة لفظ يقتضى ذكر المساواة ولا يستعمل الا باعتبار الاضافة وهى فى التعارف اذا اعتبرت بالقوة هيئة فى الانسان يطلب بها المساواة واذا اعتبرت بالفعل فهى القسط القائم على الاستواء واذا وصف الله تعالى بالعدل فليس يراد به الهيئة وانما يراد به ان أفعاله واقعة على نهاية الانتظام والانسان فى تحرى فعل العدالة يكون تام الفضيلة اذا حصل مع فعله هيئة متنزه لتعاطيه وقد يقع فعل العدالة من الانسان ولا يكون عدوحا به نحو أن يقسط مرآة أو توصلا الى نفع دنيوى أو خوف عقوبة السلطان والعدالة تارة يقال هى الفضائل كلها من حيث لا يخرج شئ من الفضائل عنها وتارة يقال هى أجل الفضائل من حيث ان صاحبها يقدر ان يستعملها فى نفسه وفى غيره وهى ميزان الله المبرأ من كل زلة وبها يستتب أمر العالم ولذلك قال الله عز وجل الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقال والسماء رفعها ووضع الميزان وعبر عن العدالة بالميزان اذ كان من أثرها ومن أظهر أفعالها للحاسة وقال النبى صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السماء والارض أى لو كان شئ من موجودات العالم واصولها زائدا على الآخر أو ناقصا عنه لم يكن منتظما هذا النظام ومن فضله ان الجور الذى هو ضده لا يتسبب الا به فلو أن اصوصا تشارطوا فيما بينهم شرطا فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم أمرهم ومن فضلها ان كل نفس تتلذذ بسماعها وتتألم من ضدها ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره اذا رآه أو سمع به وقيل العدل اتحاف الله أى من حيث العدالة لا خوف عليه وحسن العدالة والمساواة تألم النفس من كل ما كان مركبا فى العالم ليس له نظام فيكره العرج والعور ويتشاءم به ولتحرى المساواة جعل الله أعضاء الانسان الواقعة فى الاطراف زوجين اثنين وفى الأوساط واحدا وللاقتداء بذلك تحرى النقاشون بازاء كل منقوش فى جانب منقوشا مثله فى الآخر لئلا تصير الصورة معوجة العدالة وسط اطرافها كلها جور فالجور الخروج من وسط بزيادة أو نقصان ولذلك صار الجور

والخطا

والخطأ بالاضافة الى العدل والصواب من حيز الامتناع له والعدل والصواب من حيز التناهي وادراكها صعب عسر ولصعوبة ذلك قال عليه أفضل الصلاة والسلام استقيموا ولن تحصوا وتمدح سبحانه وتعالى بقوله وأحصى كل شئ عددا تنبيها على انه المتحقق بالعدالة والصواب من كل شئ وقال بعض الصوفية رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت له يا رسول الله بلغني أنك قلت شيبتني سورة هود وأخواتها فما الذي شيبك منها قال قوله تعالى فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولما كانت طريق الوصول عسرة صار طالبها اذا تحراها بجهده وان أخطأ فيها معذورا بل مأجورا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من اجتهد فاخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران

(الباب الثاني أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه)

العدل ضربان عدل مطلق يقتضي العقل حسنه ولا يكون منسوخا في شئ من الأزمنة ولا يوصف بالجور في حال وذلك جذب الاحسان الى من أحسن اليك وكف الأذية عمن كف أذاه عنك وعدل مقيد يعرف كونه عدلا بالشرع ويمكن ان يكون منسوخا في بعض الازمنة وذلك مقابلة السوء بمثله كأحوال القصاص وأرش الجنايات وأخذ مال المرتد وهذا النحو يصح ان يوصف على المجاز في بعض الاحوال بالجور ولذلك قال عز وجل وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث انه لو لم يكن معتبرا بالسيئة المتقدمة كانت هي سيئة وعلى ذلك ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون وبالنظر الى النوع الاول والاعتبار به قال بعض المتكلمين يعرف العدل والجور بالعقل قبل الشرع وبالنظر الى الاول والاعتبار به قال بعضهم لا يعرف الا بالشرع وبالجملة ان الشرع مجمع العدالة وبه تعرف حقائقها ولو توهمناه مرتفعا لكان يؤدي الى ان لا يكون عدالة على الحقيقة في شئ من جزئيات الافعال ولا يكون في كثير من كلياتها والعدالة المحمودة هي التي تتحرى لا رياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة وانما تكون عن تحر للحق عن صحيحة والذي يجب ان يستعمل الانسان معه العدالة خمسة الاول بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه والثاني من قوى نفسه وهو ان يجعل هواه مستسلما

لعقله فقد قيل أعدل الناس من انصف عقله من هواه والثالث بينه وبين اسلافه الماضين في انفاذ وصاياهم والدعاء لهم والرابع بينه وبين معاملته من اداء الحقوق والانصاف في المعاملات من المبايعات والمقارضات والكرامات والخامس بث النصيحة بين الناس على سبيل الحكم وذلك الى الولاة وخلفائهم وأما أحكام العدل في الارض فثلاثة حاكم من الله تعالى وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والعامل والآمر به وهو كل وال عدل والناض المعتبر به وأعلاه الدينار ومعناه بالفارسية الدين أورده والناض من وجه كالحاكم ومن وجه كالآلة للحاكم يعتبر اذا قيس عمل بعمل ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها صار من امتنع من انتظامها والتزامها أظلم ظالم ولهذا قال عز وجل ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين ولا يكون الكفر ظلما قال عز وجل وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا فقابل المؤمن بالظالم

(الباب الثالث ما يحسن ترك العدالة فيه)

ترك العدالة أي الظلم عما مذموم في جميع الاحوال والخارج منها الى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنها سخطا من الله عز وجل الا ان يتغمده الله تعالى بعفوه وأما الخارج عنها الى الانظلام أي التزام الظلم فقد يحمد والانظلام من حيث الكمية ثلاثة اضرب انظلام في المال وهو الاستخذاء للظالم في اخذ ماله وانظلام في الكرامة وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التعظيم وانظلام في النفس وهو استخذاء لمن يؤمله وكل واحد يكون محمودا ومذموما ومن حيث الكيفية ضربان محمود ومذموم فالمحمود التغابن في حقه في المال أو في الكرامة أو في النفس بقدر ما يحسن وهو المعبر عنه بالانخداع والتغافل الذي فيه العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل واياه قصد معاوية رضي الله تعالى عنه بقوله من خدعك فانخدعت له فقد خدعته وقال الشاعر

* ممن يغر على الثناء فيخدع * وذلك اذا كان في المال فسامحة واذا كان في النفس فعفو واذا كان في الكرامة فتواضع وأما على الوجه المذموم ففي

المال

المال والرأى غبن وفى النفس والكرامة هوان ومذلة وقد تقدم ان الاحسان والافضال أشرف من العدالة اذا كان الحكم بينك وبين غيرك وأما اذا حكمت بين اثنين فليس الا العدالة وانما الاحسان الى المتحاكمين ولهذا قال تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل وقال فيمن له الحق وان تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال يحيى بن معاذ امحوا الناس بالفضل لا بالعدل فمع العدل الاستقصاء واني لأرجو ان لا يحاسب عباده بالعدل وقد أمرهم ان يعاملوا بعضهم بعضا بالفضل وقد عظم الله تعالى أمر الافضال والاحسان فقال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال وهل يأمر الحكيم بأمر ثم لا يفعله وكيف يترك الحكيم التفضل ويقتصر على العدالة وقد بين ان التفضل أفضل وكيف لا يرجى فضله وأفعاله كلها عدل وعدله كله تفضل لانه مبتدئ بما لا يلزمه والابتداء بما لا يلزم تفضل وهل يجوز ان يترك التفضل انتهاه وقد نحراه

(الباب الرابع ذكر الظلم)

الظلم هو الانحراف عن العدالة ولذلك حد بأنه وضع الشئ فى غير موضعه المخصوص وقد تقدم ان العدالة تجرى مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الافراط العدوان والطغيان واليه أشار تعالى بقوله قد ضلوا ضلالا بعيدا والانحراف عنها فى بعض جوانبها جور والظلم أعم الاسماء ولما كان الظلم ترك الحق الجارى مجرى النقطة من الدائرة صار العدل عنها اما بعيدا واما قريبا فمن كان عنه أبعد كان رجوعه اليه أصعب ولذلك قال عز وجل ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا تنبيها على انه متى أمعن بهم فى البعد عن الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء ولاجل من يضلهم الشيطان كذلك قال تعالى أولئك ينادون من مكان بعيد وأما المستعمل معهم الظلم فخمسة وهم الذين يجب ان تستعمل العدالة معهم وقد تقدم ذكرهم الاول رب العزة سبحانه الثانى قوى النفس الثالث اسلاف الرجل الرابع معاملوه من الاحياء الخامس الناس اذا تولى انسان الحكم بين بعضهم بعضا وقال بعض العلماء شر الناس من جار على نفسه ثم من جار على ذويه ثم من جار على

كافة الناس وأفضلهم من عدل مع كافة الناس ثم مع عشيرته ثم مع نفسه وهذا قول أورد بنظر عامي فان الظالم لا يكون ظالما لغيره حتى يكون ظالما لنفسه فانه أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه فاذا الظالم أبدا مبتدأ بنفسه بالظلم والعادل في الناس اذا هم بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه قبل ان يعدل مع غيره قال بعضهم الظلمة ثلاثة الظالم الاعظم وهو الذي لا يدخل تحت شريعة الله تعالى واياه قصد تعالى بقوله ان الشرك لظلم عظيم والاوسط وهو الذي لا يدخل تحت حكم السلطان والاصغر وهو الذي يتعطل عن المكاسب والاعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة ومن خرج عن تعاطي العدالة بالطبع والخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ من الانسانية ومتى صار أهل صقع كلهم كذلك تهارشوا وتغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر قبول فقد تقدم ان عادة الله في أمثالهم اهلاكهم عن آخرهم

قوله صقع قال في المختار الصقع بالضم الناحية اه

(الباب الخامس الاسباب التي يحصل منها الاضرار)

جميع ذلك أربعة أسباب الاول الشرارة كمن يضر بغيره مستلذا بنفعه وذلك أخس الوجوه الثاني الشهوة وهي ان يرى انه لا يمكنه ادراك شهوته الا بأن يضر غيره كعامة المتلصصة العاتين في الارض الثالث الخطا وهو ان لا يقصد الاضرار بمن ضره بوجه بل قصد فعلا آخر فاتفق منه ذلك كمن رمى قرطاسا فأصاب رجلا فهو معذور من وجه والرابع الشقاوة كمن أصابه ريح فأوقعه على انسان فمات ذلك الانسان فذلك معذور ومرحوم

(الباب السادس ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة)

المكر والخديعة يتقاربان وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره وهو ضربان أحدهما مذموم وهو الاشهر عند الناس والاكثر وذلك ان يقصد فاعله انزال مكروه بالمخدوع واياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله المكر والخديعة في النار والمعنى يؤدي بقاصدهما الى النار والثاني بعكس ذلك وهو ان يقصد فاعلهما الى استجرار المخدوع والمكور به الى مصلحة لهما كما يفعل بالصبي اذا امتنع من فعل خير قال بعض الحكماء المكر والخديعة

والخديعة محتاج اليها في هذا العالم وذلك ان السفيه يميل الى الباطل
ولا يقبل الحق ولا يميل اليه لمنافاته لطبعه فيحتاج ان يخدع عن باطله بزخارف
موهة خدعة الصبي عن الندي عند الفطام ولهذا قيل مخرق فان الدنيا مخاريق
وسفسط فان الدنيا سوفسطائيه وليس هذا حثا على تعاطي الخبث بل هو حث
على جذب الناس الى الخير بالاحتيال ولكون المكر والخديعة ضربين سببا
وحسبما قال الله تعالى والذين يمكرون السيئات أولئك لهم عذاب أليم ومكر
أولئك هو يبور وقال تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا في
الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وقال أفأمن الذين مكروا
السيئات ان يخسف الله بهم الارض فخص في الآيات السيئ من المكر تنبيها
على جواز المكر الحسن ووصف نفسه تعالى بالمكر الحسن فقال ومكروا
ومكر الله والله خير الماكرين وأما الكيد فارادة الاستدراج وما يراد به لكن أكثر
ما يستعمل ذلك في الشر ومتى قصد به شر فمذموم ومتى قصد به خير فمحمود
وعلى الوجه المحمود قال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين
الملك الا ان يشاء الله وعلى ذلك الاستدراج منه قال تعالى سنستدرجهم من
حيث لا يعلمون فاستدراجه تعالى تنبيهه السبيل على الانسان وتمكينه منه
ليطلبه بالآلات التي أعطاه وذلك تكليف له لما تعذر عليه وان كان فيه
مشقة ولتمكينه من ادراك ذلك قال تعالى ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين
فمن جاهد في سبيله واعمل فكرته حتى ظفر به فسلكه على ما يجب وكما يجب سهل
عليه الوصول وكان ذلك منه منة ولطفا واحسانا ومن عطل امعانه من الفكرة
والبصر والسمع حتى أضل طريقه كان ذلك خذلانا وعذابا له وعلى نحو
ما تقدم وصف تعالى نفسه بالحيلة والمماحلة فقال تعالى وهو شديد المحال
وهذه ألفاظ لولا ان البارئ تعالى أطلقها في مواضع مخصوصة قاصدا بها معاني
صحيحة لما تجاسر بشر عرف الله تعالى ان يخطر ذلك بباله فضلا عن ان يجريه
في مقاله وان قصد بها المعنى الصحيح تنزيها له وتعظيما فيجب ان تتلى في القرآن
حيثما وردت ولا يتعدى بها وقد ذكر المفسرون ان كثيرا من الاوصاف
الشريفة كالرحيم والغفور والودود ما كان يتجاسر ان تطلق عليه سبحانه
لولا السمع لما في هذه الاسماء من الكيفية والكمية والانفعال في معنى اللغة

قوله مخرق المخرقة اللعب والمزاح مولدة وقال ابن جني في سر الصناعة قالوا مرحبا لك الله ومسهلك وقالوا مخرق الرجل وضعفها ابن كيسان اه

والله تعالى منزه عن ذلك كله وهذا فصل كبير يختص به غير هذا الكتاب

(الباب السابع ماهية المحبة وأنواعها)

المحبة ميل النفوس الى ما تراه أو تظنه خيرا وذلك ضربان أحدهما طبيعي وذلك في الانسان والحيوان وقيل قد يكون بين الجمادات كالألفة بين الحديد وحجر المغناطيس والثاني اختياري وذلك يختص به الانسان فاما ما يكون بين الحيوانين فألفة وهذا الثاني أربعة أضرب الاول للشهوة وأكثر ما يكون ذلك بين الاحداث والثاني للمنفعة ومن جهة ما يكون بين التجار وأرباب الصناعات المهينة والثالث ما يكون مركبا من ضربين كمن يحب آخر للنفع وذلك يحبه للشهوة والرابع للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم وهذه المحبة باقية على مر الاوقات وهي المستثنات بقوله تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وأما الضروب الأخر فقد تطول مدتها وتقصر بحسب دوام أسبابها والصداقة أخص من المحبة وقلما تقع بين جماعة ولا تستعمل الا في الحيوان وأما العشق فمحبة بافراط وذلك اما بحسب اللذة فيكون مذموما أو بحسب الفضيلة فيكون محمودا ولا يكون للنفع فان النافع يراد لغيره والفضيلة واللذة يرادان لانفسهما

(الباب الثامن من فضيلة المحبة)

أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة ثم العدالة فلو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا عن العدالة فقد قيل العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة ولذلك عظم الله المنة بايقاع المحبة بين أهل الملة فقال لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم وقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا أي محبة للقلوب تنبيها على ان ذلك أجلب للعقائد وهو أفضل من المهابة فان المهابة تنفر والمحبة تؤلف وقيل طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة لأن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج تزول بزوال سببها وكل قوم اذا تحابوا تواصلوا واذا تواصلوا تعاونوا واذا تعاونوا عملوا واذا عملوا عمروا واذا عمروا ولفضل وقوع المحبة شرعا شرع الله اجتماع أهل الملة

الواحدة

قوله واذا عمروا الخ هكذا في الاصل ولم يذكر جواب اذا فليفهم اه

الواحدة في مساجدهم خمس مرات لاقامة صلاتهم واجتماع أهل ملتهم في بلد كل أسبوع مرة في الجامع واجتماع أهل المدينة وأهل السواد كل سنة مرتين في الجبانة واجتماع أهل البلدان النائية في العمر مرة بمكة كل ذلك ليتآكد باجتماعهم الانس وليقع بسبب ذلك التود

(الباب التاسع فضيلة الصداقة)

الصديق محتاج اليه في كل حال أما عند سوء الحال فيعاونه وأما عند حسن الحال فليؤاسوه وليضع معروفه عندهم ومن ظن أنه يمكنه الاستغناء عن صديق فمغرور ومن ظن ان وجوده سهل فمعتوه ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق فقال هو آخر بالشخص الا أنه أنت بالنفس ولعزة وجوده سئل آخر عنه فقال هو اسم على غير معنى حيوان غير موجود فمن وجد اخوانا ذوي ثقة وجدهم عيونا وآذانا وقلوبا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد واختيار من تركن اليه لتصادقه صعب اذ قد يتشيع لذلك الناقص فتظنه فاضلا فيكون كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم

(الباب العاشر في ذكر المحبة في الناس)

من حببه الله الى الناس فقد انعم عليه نعمة وسيعة كما أن من بغضه اليهم فقد جعل له نقمة فظيعة والسبب فيمن يكون محببا الى الخلق أن من رعاه الله فصفى جوهره وطاب وحسن عمله حصل له نور لتبرز بافي مشاعر من يراه فيحبه واياه قصد تعالى بقوله لموسى عليه السلام وألقيت عليك محبة مني وقال صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله عبدا ألقى محبته في السماء فلا يشربه عبد الا أحبه واذا بغض عبدا ألقى بغضه في السماء فلا يشربه أحد الا أبغضه ولما ألقى الله تعالى على نبينا من المحبة قبل ما كان يأتيه من يبغضه فيهم بقتله الا اذا رآه وقلب في آفاق وجهه طرفه وألقى الى كلامه سمعه وأعجب به ففارقه على جميل

(الباب الحادي عشر الحث على مصاحبة الاخيار والحث على مفارقة الاشرار)

حق الانسان ان يتحرى بغاية جهده مصاحبة الاخيار فهي قد تجعل الشرير

خيرا كما أن مصاحبة الاشرار قد تجعل الخير شريرا قال بعض الحكماء من جالس خيرا اصابته بركته فجليس أولياء الله لا يشقى وان كان كلبا ككلب اصحاب الكهف حيث قال جل وعز وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ولهذا أوصت الحكماء بمنع الاحداث عن مجالسة السفهاء وقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه لا تحبب الفاجر فيزين لك فعله و يعدانك مثله وقيل جالسوا من تذكركم الله رؤيته ويزيد في خيركم نطقه وقالوا اياك ومجالسة الشرير فان طبعك يسرق من طبعه وأنت لا تدري بل قال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح كمثل الداري ان لم يحرقك بشرره يؤذيك بدخانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل أي يجذبه خليله الى دينه ومن قوة هذا المعنى في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

وليس اعداء الجليس جليسه خلقه بمقاله وفعاله فقط بل وبالنظر اليه فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقا مناسبة الى خلق المنظور اليه فان من دام نظره الى مسرور سر ومن دام نظره الى محزون حزن وذلك ليس في الانسان فقط بل في الحيوان وسائر النبات فان الجل الصعب قد يصير ذلولا بمقارنة الذلول والذلول يصير صعبا بمقارنة الصعاب والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الذابلة ولهذا يلقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لئلا تفسدها ومعلوم ان الماء والهوى يفسدان بمجاورة الجيفة اذا قربت منهما وذلك مما لا ينكره ذو تجربة واذا كانت هذه الاشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها القبول صور الاشياء خيرها وشرها فقد قيل سمي الانس انسا لأنه يأنس بما يراه ان خيرا وان شرا وللانسان في المعاشرة ثلاثة أحوال اما ان يكون شكسا أي قاسي الطبع واما ان يكون ملقا أي سلس الطبع أو مساعدا أي تاركا للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود وحق الانسان في المعاشرة ان يتقوى من جهة الفكرة بالمطابقة في الكلام ومن جهة الغضب بالتحالم ومن جهة الشهوة بالجود وان يتعرى من اضداد ذلك وان يجامل المعاشرين والمعادين والمتشمتين بالاخوان و يصابرهم

قوله الداري في القاموس والداري العطار منسوب الى دارين فرضة بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند اليها اه م

قوله اعداء الخ هو بكسر الهمزة مصدر أعدى يقال أعدى فلان فلانا من خلقه أو من علته أو من جرب وفي الحديث لا عدوى اه م

وبكاسهم

و يكاسرهم طعما في رجوعهم اخوانا واتقاء من شرورهم حتى يكون ظريفا فان الظرف عبارة عن اجتماع آلة العشرة من الطلاقة

(الباب الثاني عشر فضيلة تفرد الانسان عن الناس وذيلته)

قد كثر اختلاف الناس في مفاضلة التفرد والاختلاط فبعضهم آثر التفرد عن الناس و بعضهم الاختلاط بهم وأورد كل فريق منهم في ذلك أخبارا وذلك بسبب اختلاف نظرهما وابتلاء أحدهما بمصاحبة من لم تحمد مصاحبته ومصاحبة الآخر عن مصاحبته جيدة والاصل ان اجتماع بعضهم مع بعض أمر ضروري لتعلق بعضهم ببعض ولهذا لما سمع عمر رضي الله تعالى عنه قائلا يقول اللهم اغنني عن الناس قال يا رجل أراك تسأل الموت قل اللهم اغنني عن شرار الناس فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض وقيل التفرد مكروه الا لثلاثة سلطان لانشاء تدبير المملكة وحكيم لاستنباط الحكمة ومتنسك لمناجاة رب العزة فان التفرد يبطل الانسانية ولا يظهر من صاحبه فضيلة ومن ظن التفرد خيرا فلاجل ان ليس يظهر منه سر وذلك يشاركه فيه المرئي وفضيلة الانسان ان يكون خيرا لا أن يكون شريرا وان كان زماننا كما قيل

انا لفي زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس اجمال واحسان

فحق الفاضل العاقل ان يجتمع مع العامة في ظواهر أحكام الشرع واقامة وظائف العبادات وانالتهم من الفضيلة بقدر الوسع و يترفع عن منزلتهم في المعارف والاخلاق والافعال الجميلة ومراعات حكم الظاهر قال عليه الصلاة والسلام عليكم بالسواد الاعظم ومراعاة الترفع عن منزلتهم في المعارف والاخلاق قيل المروءة التامة مباينة العامة بل قيل من استأنس بالله استوحش من الناس وذلك لمخالفته اياهم في الخلق وللنهي عن الاغترار بكثير منهم والركون اليهم سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق قال تعالى ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركهم ولا ينبئك مثل خبير وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم

(الباب الثالث عشر العداوة)

العدو هو الذي يتحرى اغتيال الآخر وبضاده فيما يؤدي الى ضرره ومنه تعدى فلان أي فعل فعل العدو وهو من قولهم مكان ذو عدوأى متنافي الاجزاء ثاب هكذا في الاصل لمن حله والعداوة ضربان باطن لا يدرك بالحاسة وظاهر يدرك بالحاسة ولم يعرف له معنى فالباطن اثنان احدهما الشيطان وهو اصل أصل كل عدو ويعادي معادن يناسب في القاموس جوهرته وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال ان الشيطان لكم عدو ولعله باث لمن حله فاتخذوه عدوا وقال ألم أعهد اليكم الآية وقال لا تتبعوا خطوات الشيطان من قولهم باث متاعه والثاني الهوى المعبر عنه بالنفس في قوله تعالى ان النفس لأمارة بالسوء وقول النبي صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وكذلك الغضب استخرجه فانظر اذا كان فوق ما يجب ولكون هذه القوة في الانسان اذا أثيرت طريقا للشيطان في وصوله الينا وكونها كالخليفة لما سماها النبي صلى الله عليه وسلم باسمه فقال الهوى شيطان والغضب شيطان وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين وأما الظاهر من الاعداء فالانسان وذلك ضربان ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصد الى الاضرار اما مجاهرة واما مساترة وذلك اثنان واحد يعادي كل أحد وهو انسان سبعي الطبع خبيث الطينة مبغض لكل من لم يعتج اليه في العاجل بغيض الى كل نفس يهارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر

يسطو بلا سبب وتلك طبيعة الكلب العقور

ومثله هو الذي عنى تعالى بشياطين الانس والثاني عدو خاص العداوة وذلك اما بسبب الفضيلة أو الرذيلة كعادات الجاهل العالم واما بسبب نفع دنيوي كالمتجاذب في رياسة ومال وجاه وأما بسبب محمة ومجاورة موروثة للحسد كعادات بني الاعمام بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس كالطبيعي وقال رجل لآخر اني أحبك فقال قد علمت ذلك قال ومن أين علمت قال لانك ليس لي بشريك ولا نسيب ولا جار قريب وأكثر العداوات بين الناس تتولد من شئ من ذلك والضرب الثاني عدو غير مضطغن بالعداوة ولكن يؤدي حاله بالانسان الى أن يقع بسببه في مثل ما يقع من كيد عدوه فهي عدو لذلك كالاولاد والازواج

ولذلك

قوله ثاب لمن حله هكذا في الاصل لمن حله والعداوة ضربان باطن لا يدرك بالحاسة وظاهر يدرك بالحاسة ولم يعرف له معنى فالباطن اثنان احدهما الشيطان وهو اصل أصل كل عدو ويعادي معادن يناسب في القاموس جوهرته وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال ان الشيطان لكم عدو ولعله باث لمن حله فاتخذوه عدوا وقال ألم أعهد اليكم الآية وقال لا تتبعوا خطوات الشيطان من قولهم باث متاعه والثاني الهوى المعبر عنه بالنفس في قوله تعالى ان النفس لأمارة بالسوء وقول النبي صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وكذلك الغضب استخرجه فانظر اذا كان فوق ما يجب ولكون هذه القوة في الانسان اذا أثيرت طريقا للشيطان في وصوله الينا وكونها كالخليفة لما سماها النبي صلى الله عليه وسلم باسمه فقال الهوى شيطان والغضب شيطان وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين وأما الظاهر من الاعداء فالانسان وذلك ضربان ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصد الى الاضرار اما مجاهرة واما مساترة وذلك اثنان واحد يعادي كل أحد وهو انسان سبعي الطبع خبيث الطينة مبغض لكل من لم يعتج اليه في العاجل بغيض الى كل نفس يهارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر

يسطو بلا سبب وتلك طبيعة الكلب العقور

ومثله هو الذي عنى تعالى بشياطين الانس والثاني عدو خاص العداوة وذلك اما بسبب الفضيلة أو الرذيلة كعادات الجاهل العالم واما بسبب نفع دنيوي كالمتجاذب في رياسة ومال وجاه وأما بسبب محمة ومجاورة موروثة للحسد كعادات بني الاعمام بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس كالطبيعي وقال رجل لآخر اني أحبك فقال قد علمت ذلك قال ومن أين علمت قال لانك ليس لي بشريك ولا نسيب ولا جار قريب وأكثر العداوات بين الناس تتولد من شئ من ذلك والضرب الثاني عدو غير مضطغن بالعداوة ولكن يؤدي حاله بالانسان الى أن يقع بسببه في مثل ما يقع من كيد عدوه فهي عدو لذلك كالاولاد والازواج

ولذلك

ولذلك قال وعز وجل ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عليه الصلاة والسلام ليس عدوك الذي ان قتلته أجرك الله في قتله وان قتلك أدخلك الجنة ولكن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وامرأتك التي تضاجعك وأولادك الذين من صلبك وجعل عليه الصلاة والسلام هؤلاء أعداء الانسان لما كانوا سببا لاهلاكه الاخروي لما يرتكبه من المعاصي من أجلهم فيؤدي ذلك الى هلاك الابد الذي هو شر من اهلاك المعادي المناصب اياه واعلم انه لكون بعض الناس مشاركا للشيطان في المعاداة سمى الله تعالى الاعداء شياطين في قوله شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقد سمى كل ما يتأذى به شيطانا حتى قالوا ما ورود الفقير الا شيطان مجنون يؤذي بروح الانسان والفقير هو اسم بمعنى فعل ورودها شيطانا يتأذى به والله سبحانه اعلم

(الفصل السادس فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل)

(الباب الاول في حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر)

اعلم انه لما صعب على كل أحد ان يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج اليه الا بمعاونة عدة رجال له فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصيلها من الزراع والطحان والخباز وصناع آلاتها لصعب حصره فلذلك احتاج الناس ان يجتمعوا فرقة فرقة فيتظاهروا ولاجل ذلك قيل الانسان مدني بالطبع أي لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم الى بعض في مصالح الدين والدنيا وعلى ذلك نبه صلى الله عليه وسلم بقوله المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا وقال مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد اذا تألم بعضه تداعى سائره وقيل الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضا استقل ومتى خذل بعضه بعضا اختل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(الباب الثاني تسخير الله تعالى همم الناس الى الصناعات المختلفة وعناية كل واحد بما يتحراه)